هيباتيا مشاءة الإسكندرية (٣٧٠ ـ ٤١٥م)

اسحاق عبيد

المسرح مدينة الاسكندرية ، الولاية البيزنطية ، والقيصر هو شيود وسيوس الثانى الطفل الذى كان تحت وصاية يزد جرد ملك الفرس وأخته الاديبة بولكيريا ، والامبراطور وشقيقته دميتان قـــى أيدى القوط من خلفاء غاياس ـ والارك القوطى الغربى ينهب ويعربد فى البلقان دون أن يتحـــرك أحد لصده ، والاساقفة غارقون فى جدل لاهوتى عقيم ، أما الاسكندرية فقد رزقت بحاكم بيزنطـــى أبد وبطريق عتيف هو سيرل الذى يخطط لدق المسمار الاخير فى نعش الكلاسيكية السكندرية ،

والقوم من كل ركن وجنس يتوافدون على المدينة ويتسكعون على رصفانها يثرثرون عن الفلســـار وعن الاسكندرية وعن المتحف والقيسارية وعن المكتبة المنساقطة وأشلاء سيرابيس والسيبونيوم الـذى لاذ اليه أنطونى بعد هزيمة اكتيوم ليغسى فيه قسوة الهزيمة فى أحضـــان أخـــر ملكـــيات البطالمـــة ،

وفى ركن من أركان المكتبة تقف سيدة تتكلم بالمحكمة ، فى أروقتها الفضفاضة وتجاهـــد فى حث تلاميذها على فهم فكرة المفارقة والتعـــالى بغية تجاوز الظروف التعيسة :

" أيها الابناء انها لساعة لنكران الذات وكبح جماح الغضب ـ الخطيئة الكبرى ـ كما تعلمنا من تساعيات أبن الصعيد العظيم (أفلوطين) أن الناس قد مضوا شوطا بعيدا على درب هذا العلم ، فتاهوا وضلوا طريق العودة ـ الخير ... الخير هو انتفاء وسلب الشر ، فالخير عنصر الايجاب ، والشر سلبه فحسب ـ المبدأ الأول هو أصل الوجود ، فوق كل تعيين أو تحديد ـ دونه الوصـــف والتعريف ـ ومع ذلك فالخير فى حاضرنا فى كل حين ولكن النفس الآثمة لاتستوعبه ـ هيا معـــا نبحث عن الحقيقة من جديد ، كما كان يبحث المحمومون القدامى عن فيض الضوء من الكبير رع سيد الفراعين ـ كفاكم عنادا وجشعا ومضاجعة لرذائل العالم نحن نعيش على هذه الأرض على أمل الانعتاق بالخير الأول الذى لايتحقق الا هنالك ..." ويسألها أحد المريدين عما جرى لمســـرح الاسكندرية من انهيار فترد عليه : أنا جد حزينة على الخشبة المباركة ـ لقد بات المسرح معرضا للعرائس الباهتة والبانتوماين القبيح ـ أين أنت سوفوكليس ، ولكن من ذا الذى يفهمك اليوم ـ لقـــد ترعرعت السوفية وأزدهر كعبها الذميم ثم ما الذى أصاب شعراء المدينة ـ لقد أفلست القوافى ومـــرض القصيد ـ أين جوقات السيكلوبس وربات الجمال أما سيرل جالس على كرسيه منتفخ الأوداج ومـــن حوله كوكبه من حملة المباخر وهو يلعق حينا ثم يلعن أخرى " أما آن الأوان أن نخرس هيـــاتيا

كما أخرسنا سيرابيس على زمان تيودوسيوس الكبير أن الجالس على هذا العرش السكندرى والمدائن الخمس ليس له ضدا فى ولايات المسكونة ـ نحن ننطق فترتعد الأمم ، نحن ننفخ فى البوق فيهرع الينا الآلاف من الأشداء لتحطيم بقايا الوثنية . ان أورستيز نفسه ماكان بمقدوره أن يفعل ما نفعله نحن . " بالمناسبة من هو أورستيز هذا يا ديوسقوروس ؟ : أين اجامنون وكليمنسترا وشيق افيجنيا يا مولانا المقدس " : حسن حسن ما علينا ، لست أدرى لم يلح على مثال من الأدب الوثنى المقيت ؟ ... هل أعددتم العدة للقضاء على هذة الحية الرقطاء وابيها المشعوذ ثيون الذى يداعب النجوم من مرصده بالسحر والشعوذة وألاعيب الشياطين . " أجل يامولانا الكبير لقد أعددنا العدة لليلة الكبيرة ، وبيدها ستوف تجلس هاتشا على كرسيك .

تحركت جماعة من غوغاء الاسكندرية بتحريض من سيرل وأتباعه وهجموا على قاعة محاضرات هباتيا وفر التلاميذ ، ولكن نفرا من الخلصاء تجمعوا فى انتزاع هباتيا من بين مخالب الغوغاء واعادتها سالمة الى دارها . ولما أن دخلت وجدت والدها ثيون فى هلع بالغ وهويردد : " لقد هجرنا الجميع يابنيتى ، لقد أشتدت سطوة سيرل علينا ولم يبق لنا الا أن يقبض علينا ونباع فى الأسواق عبيدا " وترد هى قائلة " يا أبتى ... فلتفعل الأقدار بنا ما تشاء ، يبدو أن عصرنا ليس من هذا العالم " ولكن ياهباتيا الغوغاء تصيح بأسمك مقرونا باسم بيلاجيا الراقصة فى غضب شديد ويقولون أنك واحدة من الخرافات الضالة أتفهمين ـ أنا رجل هرم الآن ولايهمنى أن أموت ـ اليوم أو الغد عندى سواء ـ لكن أنت أيتها الشابة لم لاتحاولين الهرب الى اثينا حيث تتوجين ملكة للحكمة ـ يتركها الرجل العجوز ويدخل الى مكتبة ليفكر فى مسألة فلكية كانت تشغل باله منذ حين . أما هباتيا فقد ظلت فى غرفتها ، ووجهها مدفون بين يديها ، وقلبها يخفق بالهم الوفير لقد تظاهرت بالشجاعة لتمسح دموع أبيها العجوز ، ولكنها كانت عاجزة أمام نفسها هى ... وأحست أن الساعة قد أقتربت ، وأن الخناق يضيق ثم تساءلت بابال الالهة وسيدهم زيوس ـ هل كان هوميروس واهما فى أشعاره من رب البيت الكبير أنه ينك ياربوس فأنت لاتهتم الا بالأبطال من عيالك ... لقد صدقت ياأوكريتيوس ـ فكل شئ فى الكون عابر زائل ثم يتهاوى من دائرة عدم الى عدم جديد ـ وما جهد البشر الا كضفيف ذرات تائهات وسط الاعتام الكونى المهول . ولكن على مهلك ياهباتيا ـ لقد كانت عندنا حقيقة ـ وكنا نزدان بالفضيلة وننشر الجمال وأنا كنت أحدث تلاميذى فى الصباح عن الخلاص ـ وهى أمور لاتتغير لأنها من المطلق اللامحدود . لقد بين لنا أفلوطين درب الانعتاق والتماس النسكى وسكرة الروح عندما تجاوز الذات وتتحد فى المبدأ الأول كما كانت فى الحال فى البدء القديم ثم مالت هباتيا على الارض مثقلة القلب بهموم الخاطر ،

فكانت أطرافها قد تجمدت تماما مثل تمثال بيجماليون ... وكانت الشمس آخذة فى الأفول ولكأنها ارتاعت من صفب النهار ـ وبجهد بالغ جاهدت هباتيا فى استرجاع حشاشة من صلابة الرواقيين لعلها تعيد بها الحواس المرتجفة من سمع وبصر وفكر ... ثم استرخت فى حال مفزعة من كل مؤثر خارجى حتى تبخر الوعى بالزمان والمكان للحظة واحدة وأحست بكيانها مندلفا فى عمق اللاهوية السحيق ... ثم أفاقت وبالنفس شيء من الجراك الحذر ...

قصدت بعد هذا الى حجرة الآلهة فى دارها حيث تربض بضع التماثيل عتيقة ولكن الأرباب باتت زائفة فى فراغ لامتناهى ـ تعبيرها باهت وابتسام البين لايعيد تغييرها آه لو أن هذه الآلهة تنطق شيئا ... ولكن كيف للحجر أن يجيب ؟ ـ وأنت يا باللاس الجميلة ـ لقد نهبك القوط المتاجيس من عقر دارك ثم وجدتك فى ركن حقير عند يهودى جشع من تجار الاسكندرية بعد أن شوهت يسراك من عناء الشهب وبعد الاسفار لقد توهمت هباتيا أن آثينا سوف تبتسم لها فى معبدها مثلما فعلت هيكاتى فى القديم ... ولكن هيهات هيهات ... أثينا قد أثرت الصمت الرهيب أثينا ـ أيتها العذراء البتول ـ أيتها العقل الكامل ـ المنبثقة من المبدأ الاول دون دنس أو رياء ـ رحماك ـ اطفع السنى ـ أتوق الى بنت شفه منك ولو كانت لعنة من اللعنات اطلبى عنى الى زيوس أبيك أن يزمنى بتواحدة من صواعقه تريحنى من هذا العالم الظالم ... أنا أقف وحيدة فى هذا الكون أغرق ، والشك يمزقنى ولكن التمثال قد صم وتسمر كاسفا لايجيب .

طرق رسول الباب وسلم رسالة وافدة من بعيد الى هباتيا . فضت الاستاذة الرسالة وراحت تطالع ما فيها ...

من قورنية الى الاسكندرية ـ مدينتا مسهدة حزينة قلقة خربها الوباء وأيضا نحن نتألم لما تواتر علينا من أخبار من الاسكندرية أيتها الفيلسوفة العظيمة ... ولكن فلتعلمى ياسيدتى أن الملح القاسى يحفظ اللحوم من التعفن بفضل مرارته لقد تعلمنا منك الاستسلام أو القنوط ـ لكم أتوق الى زيارة مصر من جديد لأتملى فى تمثال (توت المصرى مثلث الأقانيم) الشاب الشيخ فى آن واحد ـ الذى يصل قوة الشباب بحكمة الكبار ـ كذلك أتوق لأبى الهول المقدس ، الرابض على ساحة المعابد أسد فى بطشه وآدمى فى دهشة ... وانى لأراك يا سيدتى قوية كأبى الهول ... ونحن نصلى لأجلك فى كل صلواتنا ...

تلميذك الوفى

سنيسوس القورنائى

وفي صبيحة اليوم التالي اتخذت هباتيا قرار حاسما ، فوضعت أروابها على جسدها وأمسكت بلفافة من البردى عليها بعض الملاحظات ، ثم ولجت الى عربتها التي تجرها أربع خيول مطهمة فنظرت ذات اليمين وذات اليسار في حسرة على ذكرى الايام الخوالي يوم أن كان شعب الاسكندرية جميعا من خاصة وعامة يهتفون بأسمها عاليا في السماء • مرحى مرحى ، ملكة الاسكندرية الحكيمة • وطلب السائق أن يمرق بها الى قاعة المحاضرات لتلقى عليها نظرة أخيرة • وما أن تحرك الركب حتى هبت قطعان من ذئاب المدينة المتربصين ومن غوغائها ومن جحورهم • فهجموا على العربة وأمسكوا بصيدهم الثمين — وجروها قسرا الى خارج العربة حتى مبنى القيسارية وألقوا بها على الدرج الرخامي ، وقد تمزقت أروابها وتطايرت أوراقها وتسلخ أديمها " ووجدت هباتيا نفسها محاطة بجمع رهيب من سفلة القوم يتصايحون " الموت الموت للوثنية " ، هذه هي أوامر سيدنا سيرل • أفاقت هباتيا لحظة فأمسكت ببقية الأروابوزقتها صارخة ، ووقفت على الدرج الرخامي عارية تماما كتمثال من الجليد الناصع البياض • وفتحت فاها لتتكلم • ولكن واحدا من أهل الزحام أنقض عليها كالوحش الكاسر وضربها ضربة قاسية •

وباتت أخر الكلمات حبيسة في نفس هباتيا — هباتيا التي علمت السكندريين الشئ الكثير عن الفضيلة والخير ونبذ العنف • لقد أنتهت حياتها كما أنتهت ممن قديم حياة المعلم الكبير سقراط • وهكذا يسدل الستار على أخر الأفلاطونيين المجددين ، وتبكي الاسكندرية كما لم تبكي من قبل على نفس نبيلة جمعت بين حكمة الفراعين وفضائل المشائين •

Bibliography

1- Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire.

2- Socrates; Ecclesiastical History.

3- Kingsley, C, Old Foes in new Faces (1851).

4- Plotinus, Ennades .